

سيغموند فرويد والصهيونية

د. قدري حفني

ان بواباتنا الشرقية لم تعد تحول، منذ سنوات، دون دخول الاسرائيليين الى بلادنا، خاصة اذا ما كانوا من العلماء. وما أكثر علماء التحليل النفسي في اسرائيل. وآلاف من طلابنا يدرسون التحليل النفسي، فينبهرون به أيما انبهار. وقد لا يتاح لهم، دائماً، من يبصرهم بابعاد الفكر الصهيوني، واستثماره للتحليل النفسي، فناً وفلسفة ومؤسسة، لبلوغ غايات الصهيونية.

ولقد سبق ان حاولت التنبيه الى خطورة ما يطرحه الفكر الفرويدي من تفسير حضاري، وذلك منذ ثلاثة وعشرون عاماً في مجلة «المجلة» القاهرية (كانون الاول - ديسمبر ١٩٦٥). ولم تمض سنوات قليلة بعد ذلك، حتى استوقفتني محاولة اقدم عليها أحد المحللين النفسيين المصريين استهدفت تفسير موقف الشعب المصري من نكسة العام ١٩٦٧، تفسيراً نفسياً يعتمد على مقولة «اللاشعور» وغيرها من مفاهيم التحليل النفسي. وقد تناولت تلك المحاولة بالنقد في مقالة نشرتها آنذاك مجلة «الفكر المعاصر» القاهرية، في شباط (فبراير) ١٩٧٠. واقتصرت محاولاتي للتنبيه والتحذير بعد ذلك على طرح قضايا الفكر الصهيوني والشخصية الاسرائيلية، خلال محاضراتي في الجامعة. غير انه وقد تصاعد المدّ الصهيوني من حولنا، وانتشرت، مع تصاعده، دعاوى وادعاءات التحليل النفسي في تفسير الصراع العربي - الاسرائيلي؛ فقد اصبحت صيحة التحذير العامة واجبة، ولم تعد الجهود الفردية في هذا المجال بكافية.

الارض المحتلة جوهر الصراع

ليس من شك في ان جوهر الصراع العربي - الاسرائيلي يتمثل في الارض، أرضنا الفلسطينية والعربية التي احتلتها اسرائيل. وعلى قضية احتلال هذه الارض - وهي قضية مادية ملموسة - تقوم، وتتعدد، أوجه الصراع الأخرى كافة، السياسية والاقتصادية والعسكرية والسكانية، وكذلك النفسية.

ولقد سعى الفكر الصهيوني، وما زال يسعى، الى تمييع قضية الاحتلال هذه، ودفعها بعيداً عن مكانتها، باعتبارها البؤرة الرئيسية للصراع. واحد البدائل الرئيسية التي يطرحها الفكر الصهيوني لذلك الجوهر المادي الملموس للصراع العربي - الاسرائيلي، هو تصويره كما لو كان صراعاً نفسياً في جوهره. ومن ثم، فان كل ما نشهده، ونعايشه، من معاناة واحتلال وقتال وشهداء، ليس سوى نتائج ومظاهر لذلك الصراع النفسي؛ وما الارض واحتلالها ومقاومة ذلك الاحتلال الآذرائع تتخفى وراءها ديناميات صراع نفسي عميق الجذور. ولقد وجد هذا الطرح الصهيوني ضالته في فكرة واحدة من مدارس علم النفس المعاصر، هي مدرسة التحليل النفسي، والتي تكاد ان تنفرد، من بين مدارس علم النفس جميعاً، باقدامها على طرح تصوّر نفسي شامل للتاريخ، وللحضارة، وللفن، وللمرض،